

الحج. رموز وحكم (٢)

آية الله عبدالله جوادي آملّي

معالم الحج في القرآن الكريم

١ - الحج - بماله من كرامةٍ خاصّة - عهد إلهي يُتشرّف به ، من هنا ، جاء التعبير عن وجوبه بلغة الميثاق والعهد الإلهي الخاص : ﴿ والله على الناس حجّ البيت ﴾^(١) ، ولا نجد مثل هذا العهد في سائر العبادات ، عهدٌ جاء فيه كلمة الجلالة منضمّةً إلى اللام (ل-) ، ومقدّمةً على متعلقها .

لقد قال الله سبحانه في أمر الصيام : «الصوم لي وأنا أجزي به»^(٢) ، والحج يستوعب الصيام ، ذلك أنّ الحاجّ الذي لا يملك هدياً يجب عليه صيام ثلاثة أيام في الحجّ وسبعة بعد عودته ، قال تعالى : ﴿... فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحجّ وسبعة إذا رجعتكم﴾^(٣) .

وهكذا كانت الصلاة مشرّعةً في الحجّ بالطواف ؛ إذ «الطواف بالبيت صلاة»^(٤) ، علاوةً على وجود فريضة الصلاة في الحجّ ، ذلك أنّ الطائف يقف بعد

(١) آل عمران : ٩٧ .

(٢) وسائل الشيعة ٧ : ٢٩٠ .

(٣) البقرة : ١٩٦ .

(٤) سنن النسائي ٥ : ٢٢٢ .

طوافه خلف أو جنب مقام إبراهيم عليه السلام لإقامة صلاة الطواف، قال سبحانه: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾^(١)، وبالصلاة هناك يُنال تمام ما للصلاة من مزايا وخصايص.

من هنا، جاء في الرواية أنّ الحج أفضل من الصلاة والصيام^(٢). وهكذا، ينال الحاجّ بركات الزكاة في حجّه، ذلك أنّ في الحجّ إنفاقاً مالياً وتثاراً وإيثاراً يُعَدُّم البخل ويبدّده، فيحفظ الحجّ بذلك الأرواح والنفوس عن التلوّث بكدورات البخل ويحميها منه، وكل من كان محفوظاً من البخل فهو من الصالحين المفلحين، قال سبحانه: ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾^(٣).

وحصيلة الكلام، إنّ الحجّ تركيبة من عبادات متنوّعة، تشمل فضائل كثيرة تحتويها تلك العبادات^(٤)، ليس هذا فحسب، بل مع ذلك كلّه، في الحجّ ميزته الخاصّة به، تلك التي لا يعثر عليها في غيره، وهذه الميزة عبارة عن كون الحجّ عهداً وميثاقاً خاصاً بين العبد وربّه سبحانه.

من هنا، جاء في الرواية عن الصادق عليه السلام: «ودّ من في القبور لو أنّ له حجةً بالدنيا وما فيها»^(٥).

وقفات مع الخطاب الإلهي الخاصّ بالحجّ

تذكر آية ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً﴾^(٦) وجوب الحجّ وتنصّ عليه، في جوّ من التوكيدات الكثيرة، التي نشير هنا إلى بعضها:

(١) البقرة: ١٢٥.

(٢) من لا يحضره الفقيه ٢: ٢٢١.

(٣) الحشر: ٩.

(٤) وسائل الشيعة ٨: ٧٧-٨٣.

(٥) المصدر نفسه: ٨٢.

(٦) آل عمران: ٩٧.

أ- إن الجملة المشار إليها جملة خبرية، ودلالاتها على الإنشاء أقوى من دلالة الجملة الإنشائية نفسها عليه.

ب- إنَّها جملة إسمية، وهي جملة يعدُّ توكيدها على معنى الثبوت أكبر من الجملة الخبرية الفعلية.

ج- إنَّ الوجوب قد بيّن فيها مرفقاً بلام التكليف في كلمة «الله»، وهو تكليف قدّم - بسبب أهميته - على المبتدأ وهو «حجٌّ».

د- ولمزيد من التوكيد، جاءت «على» فوراً، وبدون فصل، عقيب كلمة «الله»، وهو ما يدلُّ هنا على الوجوب ويرشد إليه.

هـ- ورد ذكر المكلفين^(١) في الآية مرتين: ابتداءً بصورة الإجمال والعموم، واستمراراً بصورة التفصيل والخصوص.

ووجه التأكيد في هذا السياق بيان الموضوع مع البدل، ثم ذكر البدل بمثابة التكرار، فبدل أن يقال: الله على المستطيع، قال: ﴿الله على الناس... من استطاع...﴾، فقد جاء بدل بعض عن الكل في الآية موضع كلمة «الناس».

(١) إن سعة مفهوم الحج وشموله بلغ حداً غداً فيه إطفاء المولود الصغير مشروعاً ومستحباً، على خلاف سائر العبادات، التي يرى بعض الفقهاء أنّ القيام بها في سن الصغر إنما هو للتمرين.

و- ولم تذكر الآية في تاركي الحج: «ومن ترك الحج»، بل عبّرت عنهم بكلمة «ومن كفر...»، وهو تعبير يقوم - كما تفيده الروايات - مقام ترك الحج^(١).
 ومن الواضح أنه ليس المقصود بالكفر هنا الكفر الاعتقادي، بل الكفر العملي، وفي هذا المجال يقول الإمام الصادق عليه السلام: «من مات ولم يحجّ حجّة الإسلام لم يمنعه من ذلك حاجة تجحف به، أو مرض لا يُطيق فيه الحج، أو سلطان يمنعه فليمت يهودياً أو نصرانياً»^(٢).

ز- إن جملة: «فإن الله غني عن العالمين» في ذيل الآية جاءت لإبراز عدم الاعتناء بتارك الحج، أي أنّ الله سبحانه ليس مستغنياً عن تارك الحج فحسب، بل هو في غنى أيضاً عن العالمين بأجمعهم.

٢- لقد عدّ الله سبحانه زمان الحج والعمرة ومكانيهما، وكذلك الحجّ والمعتمرين، بل حتى الذين يقصدون الحج والعمرة من أقصى نقاط العالم دون أن يكونوا قد وصلوا بعدد إلى الميقات، وكذلك أضاحي الحج، بل حتى ذاك الحذاء المتدلي - معلقاً - من رقبة الحيوان المصحوب، دلالة على صيرورته أضحية في الحج... عدّ سبحانه ذلك كلّ من الشعائر الإلهية، فقد قال: «يا أيها الذين آمنوا لا تحلّوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام»^(٣)، كما تحدّث عن الصفا والمروة فقال: «إنّ الصفا والمروة من

(١) بحار الأنوار ٦٩: ٩٣، ١١٠.

(٢) وسائل الشيعة ٨: ١٩، تدلّ فاء التفريع في «فليمت يهودياً أو نصرانياً» على الوجوب الفوري للحج، ذلك أنّ أحداً لا يعرف زمان موته، وهو في كل لحظة عرضة لهذا الخطر المحتمل الهائل، لذا لا يمكن للمستطيع أن يكون نائباً عن غيره، ذلك أنه ليس لأحد حق تأخير الحج عن سنة الاستطاعة.

أمّا تأخير المسلمين حجهم عن عام فتح مكّة، وهو عام ٥٨هـ، لمدة عامين، ليحجّوا في السنة العاشرة، فقد كان ذلك بسبب عقد عقده مع المشركين قبل فتح مكّة أن لا يردوا مكّة، أي أنّ الحج لم يكن واجباً على المسلمين بسبب انعدام الاستطاعة السريية (تخلية الطريق) من هنا، أرسل رسول الله صلى الله عليه وآله في العام التاسع للهجرة، بعد فتح مكّة، علي بن أبي طالب عليه السلام مع جمع من المسلمين.

(٣) المائدة: ٢.

شعائر الله^(١).

ولكي يحث الآخرين ويرغبهم في تعظيم الشعائر وحفظ الحدود الإلهية، تحدّث عن آثار تعظيم الشعائر فقال: «ومن يعظّم حرّامات الله فهو خير له عند ربّه»^(٢)، وقال: «ومن يعظّم شعائر الله فإنّها من تقوى القلوب»^(٣).

٣- وتعدّ الآية المباركة: «ويسألونك عن الأهلّة قل هي مواقيت للناس والحج»^(٤)، أنموذجاً آخر من الدوالّ على أهمية الحج، فرغم أنّ كلمة «الناس» تشمل تمام الأمور التي

يعدّ الحج من أهم مظاهر الإسلام، نظراً لاشتماله على الكثير من السنن والأسرار

يواجهها الناس ويتعاملون معها، إلا أنّ ذكر الحج مستقلاً بعد ذلك، إنّما جاء من باب ذكر الخاص بعد العام لبيان أهمية الخاص، ليقول: إنّ تغيّر أوضاع القمر وأشكاله جاء لكي يسهل على الإنسان تحديد أشهر الحج، حتّى يتسنى للناس المبادرة إلى إقامة الحج في هذه الأشهر.

٤- ومع كثرة الآيات القرآنية المحاكية عن دلالة كل شيء على الله سبحانه وحكايته عنه، إلا أنّ موضوع الحج جاء التعبير عنه بـ «آيات بينات» (آل عمران: ٩٧)^(٥)، نظراً لما في الحج من خصوصيات متنوّعة، زمانياً ومكانياً،

(١) البقرة: ١٥٨.

(٢) الحج: ٣٠.

(٣) الحج: ٣٢.

(٤) البقرة: ١٨٩.

(٥) لمكّة والحرم آداب وسنن، تنشأ جميعها من حرمة المسجد الحرام، وهكذا كانت للمسجد الحرام أيضاً آداب وأحكام وسنن، منشؤها احترام الكعبة، ولدى البحث عن مرجع الضمير في «فيه» و«دخله» في الآيات الشريفة: «فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً» و«ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم» (الحج: ٢٥)، يلاحظ أنّه يعود تارةً -بتناسب الحكم والموضوع- إلى أرض مكة أو إلى دائرة الحرم، فيما يرجع أحياناً إلى المسجد الحرام، وأخرى إلى الكعبة، وهي القبلة والمطاف، وعليه فلم يكن مرجع الضمير واحداً، ذلك أنّه -وكما جاء في أبحاث عديدة متنوّعة- ليس من التهافت عود الضمير المذكور إلى أكثر من مرجع، نعم الكعبة بما لها من خصوصية بوصفها القبلة والمطاف تبقى مكائنها محفوظة.

ففي الحج آيات إلهية، كالكعبة والحجر الأسود، ومقام إبراهيم، وزمزم وغير ذلك من أمثاله مما هو واضح مشهود. فأرض قاحلة لا تقبل الزراعة، تغدو بدعاء النبي إبراهيم عليه السلام: ﴿فاجعل أفئدةً من الناس تهوي إليهم﴾^(١) كعبةً للمشتاقين، هي في حد ذاتها من الآيات الإلهية، كسائر بركات الحج وأسراره، مما لا يشاهد الكثير منها سوى أولياء الحق.

٥ - إضافةً إلى الآيات المذكورة آنفاً، ثمة آيات أخرى طبقت في الروايات على الحج أيضاً، ومن بين هذه الروايات، ثلاث روايات نقلها هنا هي:

أ - معاوية بن عمار قال: «سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجل له مال ولم يحج قط؟ قال: هو ممن قال الله تعالى: ﴿ونحشره يوم القيامة أعمى﴾^(٢)، قال: قلت: سبحان الله! أعمى؟ قال: أعماه الله عن طريق الحق»^(٣).

ب - عن أبي بصير قال: «سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً﴾^(٤)، قال: ذلك الذي يسوّف نفسه الحج - يعني حجة الإسلام - حتى يأتيه الموت»^(٥).

والمستفاد من هذين الحديثين أن باطن تارك الحج أعمى في الدنيا، وأن هذا الباطن، سيعدو ظاهراً في الآخرة، ولهذا فسوف يحشر هذا الإنسان فاقد البصر يوم القيامة.

ج - طبقت في بعض الأحاديث الآية المباركة: ﴿ففرّوا إلى الله﴾^(٦) على الحج، منها ما قاله الإمام الباقر عليه السلام في تفسير المراد منها: «حجّوا إلى الله»^(٧).

(١) إبراهيم: ٣٧.

(٢) طه: ١٢٤.

(٣) وسائل الشيعة ٨: ١٧.

(٤) الإسراء: ٧٢.

(٥) وسائل الشيعة ٨: ١٧.

(٦) الذاريات: ٥٠.

(٧) وسائل الشيعة ٨: ٥.

معالم الحج في الروايات

يعدّ الحج من أهم مظاهر الإسلام، نظراً لاشتماله على الكثير من السنن والأسرار، ولهذا وردت في أهميته، ومكائنه، وأبعاده المختلفة، وأسرار تشريعه.. الكثير من الروايات عن المعصومين عليهم السلام، ونحاول هنا الاكتفاء ببعض ما جاء عنهم عليهم السلام في ذلك.

١ - عن معاوية بن عمّار عن أبي عبد الله عليه السلام عن أبيه، عن آبائه عليهم السلام: «أن رسول الله صلى الله عليه وآله لقيه أعرابي فقال له: يا رسول الله! إني خرجت أريد الحج ففاتي، وأنا رجل مميل، فمُرني أن أصنع في مالي ما أبلغ به مثل أجر الحاج. فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: أنظر إلى أبي قبيس، فلو أن أبا قبيس لك ذهبه حمراء أنفقته في سبيل الله ما بلغت ما يبلغ الحاج.

ثم قال: إن الحاج إذا أخذ في جهازه لم يرفع شيئاً ولم يضعه إلا كتب الله له عشر حسنات، ومحى عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات، فإذا ركب بغيره لم يرفع خفاً ولم يضعه إلا كتب الله له مثل ذلك، فإذا طاف بالبيت خرج من ذنوبه، فإذا سعى بين الصفا والمروة خرج من ذنوبه، فإذا وقف بعرفات خرج من ذنوبه، فإذا وقف بالمشعر الحرام خرج من ذنوبه، فإذا رمى الجمار خرج من ذنوبه.

قال: فعَدَّ رسول الله صلى الله عليه وآله كذا وكذا موقفاً إذا وقفها الحاج خرج من ذنوبه، ثم قال: أنى لك أن تبلغ ما يبلغ الحاج، قال أبو عبد الله عليه السلام ولا تكتب عليه الذنوب أربعة أشهر، وتكتب له الحسنات، إلا أن يأتي بكبيرة»^(١).

ولعل مراد النبي صلى الله عليه وآله من التأكيد على خروج الحاج من ذنوبه عقب أداء كل من المناسك الإشارة إلى أن كل واحد من هذه الأعمال له دور في غفران نوع خاص من الذنوب، ولهذا كان واجباً لتحصيل هذه المغفرة الإلهية، أو أن المراد أن الذنوب حيث تراكمت وخرّنت حتى غدت حجاباً يغطّي قلب المذنب الخاطيء كان كل

(١) وسائل الشيعة ٨: ٧٩.

منسكٍ من هذه المناسك موجباً لإيقاظها، ورفع هذا الغطاء تدريجياً عن صفحة القلب .

٢ - جاء في وصايا النبي ﷺ لأمير المؤمنين ﷺ: «يا علي! تارك الحج وهو مستطيع كافر، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾»^(١)،^(٢).

٣ - وعن أمير المؤمنين ﷺ: «... وفرض عليكم حج بيته الحرام، الذي جعله قبلةً للأنام، يردونه ورود الأنعام، ويألهون إليه ولؤه الحمام، وجعله سبحانه علامةً لتواضعهم لعظمته، وإذعانهم لعزته، واختار من خلقه سماعاً أجابوا إليه دعوته، وصدقوا كلمته، ووقفوا مواقف أنبيائه، وتشبهوا بملائكته المطيفين بعرشه، يُجرزون الأرباح في متجر عبادته، ويتبادرون عنده موعد مغفرته، جعله سبحانه وتعالى للإسلام علماً، وللعائدين حرماً، فرَضَ حَقَّهُ، وأوجب حجّه، وكتب عليهم وفادته»^(٣).

٤ - ويقول علي ﷺ أيضاً حول فضيلة الحج والعمرة: «إن أفضل ما توصل به المتوسلون إلى الله سبحانه وتعالى الإيمان به وبرسوله، والجهد في سبيله... وحج البيت واعتماره، فإنها ينفيان الفقر، ويرحضان الذنب...»^(٤).

٥ - ويحتل الحديث عن الكعبة وأرض مكة وبيان سر كون بيت الله هناك قسماً أساسياً من الخطبة القاصعة لأمير المؤمنين ﷺ، ففي هذه الخطبة يشير الإمام ﷺ إلى تاريخ الحج، وإلى دوره في خلق روح التواضع وتحطيم التكبر والاستكبار، إنه يقول في مطلع هذا القسم من خطبته: «ألا ترون أن الله سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم صلوات الله عليه إلى الآخرين من هذا العالم بأحجارٍ

(١) آل عمران: ٩٧.

(٢) وسائل الشيعة ٨: ٢٠.

(٣) نهج البلاغة، الخطبة: ١.

(٤) المصدر نفسه، الخطبة: ١١٠.

لا تضرّ ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، فجعلها بيته الحرام الذي جعله للناس قياماً...».

وفي ختام هذا القسم من الخطبة جاء: «... ولكن الله يختبر عباده بأنواع الشدائد، ويتعبدهم بأنواع المجاهد، ويبتليهم بضروب المكاره، إخراجاً للتكبر من قلوبهم، وإسكاناً للتذلل في نفوسهم، وليجعل ذلك أبواباً فتوحاً إلى فضله، وأسباباً ذللاً لعفوه»^(١).

٦- ويقول علي عليه السلام أيضاً: «الله الله في بيت ربكم، لا تخلوه ما بقيتم، فإنه إن ترك لم تناظروا»^(٢).

٧- ويقول الإمام الباقر عليه السلام: «بني الإسلام على خمسة أشياء: على الصلاة، والزكاة، والحج، والصوم، والولاية - وبعد ذكر فضائل الخمسة قال -: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لحجة مقبولة خير من عشرين صلاة نافلة»^(٣)، رغم أن الصلاة عمود الدين و معراج المؤمن .

٨- ويتحدث الإمام الباقر عليه السلام أيضاً عن جامعية الحج وقدمه فيقول: «أتى آدم هذا البيت ألف آتية على قدميه، منها سبعةائة حجة، وثلاثمائة عمرة»^(٤).

٩- وفي رواية منقولة عن الإمام الصادق، جاء عن زرارة: «قلت لأبي عبدالله عليه السلام: جعلني الله فداك، أسألك في الحج منذ أربعين عاماً فتفتيني، قال: يا زرارة! بيت حج إليه قبل آدم بألفي عام تريد أن تفتي مسأله في أربعين عاماً»^(٥).

(١) المصدر نفسه، الخطبة: ١٩٢ (القاصعة).

(٢) المصدر نفسه، الرسالة: ٤٧.

(٣) الكافي ٢: ١٨-١٩.

(٤) وسائل الشيعة ٨: ٩٤، وقد ذكر أن عمر آدم عليه السلام كان من ٩٣٠ إلى ١٠٣٠ عاماً، فراجع ١١: ٢٦٨-٢٦٩.

(٥) وسائل الشيعة ٨: ٧، وثمة بحوث يمكن طرحها تخصّص جملة «ألفي عام قبل آدم»، كما توجد بحوث تتعلق بالأجيال البشرية القديمة، ولكنها خارجة عن طاقة هذه الدراسة، وإنما نشير هنا إلى جملة «أربعين سنة سؤالاً وجواباً» الواردة في هذه الرواية، فقد ولد الإمام الصادق عليه السلام عام ٥٨٣هـ، وتولى منصب الإمامة عام ١١٤هـ، وقد ←

١٠- وعن الإمام الصادق عليه السلام حول علة وجوب الحج: «فجعل فيه الاجتماع من الشرق والغرب ليتعارفوا... ولتعرف آثار رسول الله صلى الله عليه وآله وتعرف أخباره ويذكر ولا ينسى»^(١).

١١- ويحيب الإمام الصادق عليه السلام أيضاً عن سؤال وجه إليه عمّن أنجز حجّه الواجب عليه، فهل التصدق في السنوات اللاحقة بدل الحج أفضل له أم لا؟ فيقول: «كذبوا، لو فعل هذا الناس لعطل هذا البيت، إن الله عز وجل جعل هذا البيت قياماً للناس»^(٢).

١٢- وحول الكعبة، يقول الإمام الصادق عليه السلام في إحدى الروايات: «جعلها الله لدينهم ومعائشهم»^(٣)، تماماً كما جاء في رواية أخرى: «لا يزال الدين قائماً ما قامت الكعبة»^(٤).

والأصل هنا قيام الدين وقوامه، فالحج الذي لا يؤدي للدين ولا يُقام له لا ثمرة من ورائه.

من هنا، قال النبي صلى الله عليه وآله: «يأتي على الناس زمان يكون فيه حج المملوك نزهة، وحج الأغنياء تجارة، وحج المساكين مسألة»^(٥).

١٣- وعن آثار الحج وبركاته، يقول الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام: «إنما

→ توفي عام ١٤٨هـ، وبهذا تكون مدة حياته المباركة ٦٥ عاماً، فيما تكون مدة إمامته ٣٤ عاماً، وبناءً عليه، فمقصود زرارة من كلمة «أربعين سنة» ما هو أعمّ من فترة الإمامة وما سبقها، ذلك أن الإمام عليه السلام كان عالماً بالأحكام الدينية حتى قبل إمامته، عندما كان تحت زعامة الإمام الباقر عليه السلام، أو أنّ المراد فترة إمامته البالغة ٣٤ سنة، وجاء التعبير بأربعين سنة على سبيل المتعارف، حيث لا يحسب العرف كسور العقود الزمنية، مكتفين بذكر الرقم التقريبي.

(١) المصدر نفسه: ٩.

(٢) المصدر نفسه: ١٤.

(٣) المصدر نفسه: ٤١.

(٤) المصدر نفسه: ١٤.

(٥) المصدر نفسه: ١١: ٦٠.

أمروا بالحج لعلّ الوفاة إلى الله عز وجل ، وطلب الزيادة ، والخروج من كل ما اقترب العبد ، تائباً مما مضى ، مستأنفاً لما يستقبل ...» .

إلى أن قال : «وقضاء حوائج أهل الأطراف في المواضع الممكن لهم الاجتماع فيه ، مع ما فيه من التفقه ونقل أخبار الأئمة عليهم السلام إلى كل صقع وناحية»^(١) .

١٤ - وما ورد في الحج بوضوح من الحق وسعة الرحمة لم يرد في أيّ من العبادات الأخرى ، فالله تعالى يتحدث عن وضوح الحق في الحج بالقول : «فيه آيات بينات»^(٢) ، ذلك أن أسرار الحج ، وهي آيات الله تعالى ، ستكون واضحة بينة هناك .

أمّا فيما يخصّ سعة رحمة الحج :

أ - فيتحدّث الإمام الباقر عليه السلام عن خرج قاصداً الحج الواجب ثم مات وهو في الطريق : «إن مات في الحرم فقد أجزأت عنه حجة الإسلام ...»^(٣) .

وهذا مظهر من مظاهر سعة الرحمة ، وأدب الضيافة الإلهية .

ب - ويقول رسول الله صلى الله عليه وآله في حجة الوداع ، عند الوقوف بعرفات قريب الغروب : «إن ربكم تطوّل عليكم في هذا اليوم ، وغفر لمحسنكم ، وشفّع محسنكم في مسيئكم ، فأفيضوا مغفوراً لكم»^(٤) .

ج - ولعلّه لما في الحج من خصوصيات كهذه قال الإمام الصادق عليه السلام لعيسى ابن أبي منصور : «يا عيسى ! إني أحب أن يراك الله فيما بين الحج إلى الحج وأنت تتهيأ للحج»^(٥) .

د - وفي رواية أخرى عنه عليه السلام : «ليحذر أحدكم أن يعوّق أخاه عن الحج ،

(١) المصدر نفسه ٨ : ٧-٨ .

(٢) آل عمران : ٩٧ .

(٣) وسائل الشيعة ٨ : ٤٧ .

(٤) المصدر نفسه ٨ : ٦٥ .

(٥) المصدر نفسه : ١٠٦ .

فتصبيه فتنة في دنياه مع ما يُدخِر له في الآخرة»^(١).
ذلك أنه لا يمكن لأحد أن يمنع عن غيره خيراً كالحج، بل إن على المسلمين
الذين أقدموا بأنفسهم على تأدية فريضة الحج أن يشجّعوا الآخرين عليها
ويحثوهم على أدائها.

عظمة الحج في أدعية شهر رمضان

ويكفي لإبراز أهمية الحج، مع أحكامه وحِكَمِهِ الخاصة، مطالعة ما
جاء - بصورة مكرّرة - في طلب الحج في أدعية شهر رمضان المبارك^(٢)، بحيث
لأنجاز إذا قلنا: إنَّ صيام هذا الشهر، وأدعيته الليلية، ومناجاته السحرية،
وأوراده اليومية تهيء الإنسان للحج، ودرك ما قيل فيه من حكم ومفاهيم و...،
من قبيل: «الساجد بمكة كالمتشحط بدمه في سبيل الله»^(٣).

و«تسيحة بمكة أفضل من خراج العراقيين ينفق في سبيل الله»^(٤).
و«من ختم القرآن بمكة لم يميت حتى يرى رسول الله ﷺ، ويرى منزلته في
الجنة»^(٥).

و«النظر إلى الكعبة حباً لها يهدم الخطايا هدماً»^(٦).

إن طلب التوفيق لإدراك الحج في أدعية شهر رمضان المبارك ملفت للنظر،
إلى حدّ ربما يمكن القول بأنَّ الله سبحانه كان يريد توفير الأرضية المناسبة ليهيئ

(١) المصدر نفسه: ٩٨.

(٢) مفاتيح الجنان، الأعمال المشتركة، أعمال ليالي وأيام شهر رمضان المبارك، دعاء أبي حمزة الثمالي، أدعية
ليالي القدر... وقد جاء في قسم من الدعاء الأول في الأعمال المشتركة: «اللهم ارزقني حج بيتك الحرام، في
عامي هذا وفي كل عام... اللهم إني أسألك فيما تقضي وتقدر... أن تكتنني من حجاج بيتك الحرام، المبرور
حجهم...».

(٣) وسائل الشيعة ٩: ٣٨٢-٣٨٣.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه: ٣٤٠.

(٦) المصدر نفسه: ٣٦٥.

بذلك ضيافته عبر أشهر متعدّدة، لا سيما العشر الأوائل من ذي الحجة .
وبناءً عليه ، يكون شهر رمضان المبارك بداية الضيافة الإلهية ، فيما يكون
ذوالحجة منتهاها ، وذلك في موسم أداء مناسك الحج .
إن الحج ضيافة الله ، والحجاج - كالصائمين - ضيوف الرحمن ، تماماً كما قال
الإمام الصادق عليه السلام : «إنّ ضيف الله عز وجل رجلٌ حجّ واعتمر ، فهو ضيف الله حتى
يرجع إلى منزله»^(١) .

ويقول الإمام علي عليه السلام في ذيل جوابه عن سؤال : لماذا حرم الصوم في أيّام
التشريق؟^(٢) : «لأنّ القوم زوّار الله فهم في ضيافته ، ولا يجمل بمضيفٍ أن يصوم
أضيافه»^(٣) .

إنّ هذه الضيافة ذات الأشهر المتعدّدة تقع على مرحلتين :
الأولى : يقول فيها المضيف لضيفه : أطلب ما تريد .
الثانية : إعطاء المضيف ضيفه ما كان طلبه منه .

فالضيافة الخاصّة بشهر رمضان المبارك توفر أرضيةً مناسبة لضيافة الحج ،
ففي شهر رمضان ، يقول المضيف - وهو الله سبحانه - لعباده الصائمين : «اطلبوا منّي
الحج» ، أما في الضيافة الثانية ، أي في مراسم الحج ومناسكه ، فإنّ الحديث يكون
عن العطاء لا الطلب .

تذكّر:

حيث كانت الولاية من أركان الإسلام والحج ، جاء في أدعية شهر رمضان
المبارك ، إلى جانب طلب الحج وزيارة بيت الله الحرام ، طلبٌ آخر وهو التشرف

(١) المصدر نفسه ١٠ : ٤٥٨ .

(٢) أيام التشريق هي اليوم الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من ذي الحجة ، ويحرم على الحاضرين في
منى في هذه الأيام الصيام .

(٣) وسائل الشيعة ٨ : ١٥٩ - ١٦٠ .

بزيارة العتبات المقدّسة وزيارة الحرم المطهّر لرسول الله ﷺ والأئمة المعصومين عليه السلام: «اللهم... ارزقني... زيارة قبر نبيك والأئمة عليهم السلام، ولا تخلني يا ربّ من تلك المشاهد الشريفة»^(١).

الشرف الزماني للحج

«ما من أيّام أزكى عند الله تعالى، ولا أعظم أجراً من خير في عشر الأضحى»^(٢).

و«ما من أيّام، العمل الصالح فيها أحب إلى الله عز وجل من أيّام العشر، يعني عشر ذي الحجّة...، إلا رجلٌ خرج بنفسه وماله فلم يرجع بشيء من ذلك»^(٣).
يعتبر العارف الجليل الميرزا جواد آقا ملكي رحمه الله الحديث الثاني من هذين الحديثين النبويين أكثر أهمية، وهو الحديث الناظر إلى عظمة العشر الأوائل من ذي الحجّة وشرفها^(٤).

وسرّ هذه الأهمية في الرواية الثانية حديثها عن المحبة، لا عن العظمة، ومجيء كلمة «أحبّ» فيها، وهي أكثر دلالة واختزاناً للمعاني من «أزكى» و«أعظم». والظاهر أنّ أفضلية الحج وأيامه الخاصة لم تنشأ فقط من البعد العبادي الذي فيه، وإمّا ذلك من جوانب عدّة أخرى لها الدور في هذه الأفضلية، فأهم حادثة وقعت في الخامس والعشرين من ذي القعدة، وهو أحد أشهر الحج، دحو الأرض، طبقاً لبعض الروايات، يعني دحو الأرض ظهور أرض الكعبة وحرم الله واتساعها^(٥).

(١) مفاتيح الجنان، دعاء أبي حمزة الثمالي.

(٢) وسائل الشيعة ١٠: ٢٢١.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) التبريزي، المراقبات: ٣٢٦، الفصل: ١٢.

(٥) وسائل الشيعة ٧: ٣٣١-٣٣٢، و ٩: ٣٤٧-٣٤٨.

وفي العشر الأوائل من ذي الحجة كان نزول سورة البراءة وإبلاغها بيد أمير التبرّي علي بن أبي طالب أهم حادثة تاريخية حصلت، فقد كان الآخرون على أمل في أن يكلّفوا إبلاغ البراءة وقراءتها، إلا أن الوحي الذي جاء بسورة البراءة وبلاغتها، أعطى بنفسه أمراً لكي يبلغ تبرّيها على يد شخص يكون بنفسه مظهراً للتولي والتبرّي.

«لا يؤدّيها إلا أنت أو رجلٌ منك».

من هنا، كان أمير المؤمنين علي عليه السلام - وهو الرسول نفسه ^(١) - المكلف بتبليغها ^(٢).

إنّ هذه الأحداث ونظائرها تدلّل بوضوح على أنّ زمان الحج له من هذه الجهات المذكورة فضيلة أيضاً، فكل زمان يمنحه مظهره الشرف، وكل مكان يمنحه المكين فيه الفخر، وإلا فلا فرق بين الأزمنة في الجوهر، من حيث أجزائه، كما لا فرق في المكان وجوهره بين الأبعاد الهندسية، أي: الطول، والعرض، والعمق أو الارتفاع.

نعم، إذا ما كان لشيء في مخزن الغيب تعيّن، فمن الممكن أن يحتوي على خصوصية، تظهر بعد التنزل، أمّا لو لم يكن لهذا الشيء في رتبة الغيب أيّ تعيّن، إنّما حاز تعيّن في المرتبة اللاحقة، فإن خصوصيته إنّما تظهر في مرتبة التعيّن تلك.

تنظيم العقود باسم الحج

ولكي تبقى السنة الإبراهيمية في الحج حيّة في ذاتها واسمها، كان الأنبياء الإبراهيميون عليهم السلام ينظمون عقودهم واتفاقاتهم من أبسطها إلى أهمّها في موسم الحج أو باسمه، تماماً كان الحال في الاتفاق الذي وقع بين موسى وشعيب عليهما السلام إجارة واستئجاراً، فقد استخدم تعبير «ثماني حجج» بدلاً من ثماني سنوات: ﴿على أن

(١) في سورة آل عمران، الآية ٦١، جاء: ﴿قل تعالوا ندع... وأنفسنا وأنفسكم﴾.

(٢) بحار الأنوار ٣٥: ٣٠٣.

تأجرني ثماني حجج»^(١).

إن تسمية هذا الشهر واشتهاره حتى في العهد الجاهلي بذي الحجة إنما كان لأداء «حج البيت» فيه ، وهذه التسمية والشهرة تدلّ على شهرة مراسم الحج كما تدلّ على أهميتها .

أبرز اتفاقات أيام الحج وموathيقها

إن نيل الكمال المعنوي والوصول إلى المقامات السامية يحتاج في الحد الأدنى إلى أربعين ليلة ونهاراً متواصلة من الجهاد والسعي المخلص ، «ما أخلص عبد الله عز وجل أربعين صباحاً إلا جرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»^(٢).

إن شهر ذي القعدة والعشر الأوائل من ذي الحجة ، وهي من أبرز مصاديق «وليلٍ عشر»^(٣) ، أبرز فرصة لاتخاذ الأربعين المشار إليها . فعندما تشرف موسى الكليم ﷺ بمقام النبوة الرفيع ، عقد الله تعالى معه أهم اتفاق في أشهر الحج : «وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتمناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة»^(٤)^(٥).

والظاهر أن أفضلية الحج وأيامه الخاصة لم تنشأ فقط من البعد العبادي الذي فيه ، وإنما ذلك من جوانب عدة أخرى لها الدور في هذه الأفضلية

وقد بدأت هذه الأربعين من بداية شهر ذي القعدة حتى العاشر من ذي الحجة ،

(١) القصص : ٢٧ .

(٢) بحار الأنوار ٦٧ : ٢٤٢ .

(٣) الفجر : ٢ .

(٤) الأعراف : ١٤٢ .

(٥) راجع : الكافي : ٤ : ٧٨ ؛ وتفسير العياشي : ٢ : ٢٥ .

حيث تبلغ مراسم الحج وزيارة بيت الله الحرام مبلغها، وقد كان موسى الكليم ﷺ صائماً على الدوام خلال هذه الأربعين، ليلاً ونهاراً^(١). وفي هذه الأربعين، ارتوى موسى ﷺ تماماً من شوق لقاء الحقّ تعالى، وكانت حصيلتها، إضافةً إلى شهود الحق سبحانه^(٢)، تلقي التوراة^(٣). والمقصود هنا أنّ هذه المواهب والعطاءات كانت نصيب موسى ﷺ في أيام إقامة مناسك الحج.

إن هذا العهد والاتفاق، واحد من أبرز الاتفاقات والمواثيق التي وقعت بين الخلق (موسى) والخالق، فيما كان عقد الإجارة بين المخلوقين (موسى وشعيب ﷺ) من أبسط العقود والاتفاقات الواقعة.

(١) الدرّ المنثور ٣: ٥٣٥-٥٣٦.

(٢) الأعراف: ١٤٣.

(٣) الأعراف: ١٤٥.